

ابتعاث الأسطورة .. مواجهة جديدة تواجه

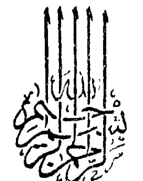
الفكر الإسلامي

أنور الجندي

دار الإصلاح
للطبع والنشر
السعودية - الدمام

اتجاهات ومؤامرات جديدة تواجه

الفكر الإسلامي



هناك حصيلة ضخمة من الاساطير والخرافات تتمثل فى قصص وملاحم . وتتخذ من المعتقدات الوثنية موضوعا لها ، وهى تفسر احداث الحياة وظواهر الطبيعة على ضوء هـذه المعتقدات وتنسبها الى تدخل الالهة وانصاف الالهـة فى فى شئون البشر ولقد كان لليونان أساطيرهم وكان للعرب فى الجاهلية أساطيرهم والغـالب أن الاغريق والعرب فى الجاهلية اشتقوا معتقداتهم الاسطورية من الفرعونية الوثنية القديمـة .

هذا التراث من الاساطير والخرافات ، المتصل بطوالع النجوم وأفلاك البروج ، وأسرار الارقام ومجموع التعـاويذ الخاصة بطرد الارواح الشريرة ، كان بمثابة تجارة للكهنـة القدامى فى الحضارات المصرية والاشورية والبابلية القديمة ولقد كان اليهود هم حملة لواء هذه الاسـاطير والخرافات بالاضافة الى فن السحر الذى تخصصوا فيه .

هذه الحصيلة يجرى تجديدها فى العصر الحديث على نحو من الاهتمام الواسع ، والتركيز الشديد على افق الفكر الاسلامى بعد أن جاء الاسلام فحطم هذا التراث كله ، وقضى عليه وذلك حين قدم صحاح الاخبار والصور والعقائد فيما يتعلق بمختلف شئون الغيب ، وأجاب عن كل الأسئلة التى جاءت بها هذه الاساطير والخرافات بمثابة محاولات بشرية ضالة مضلة ازاء هذه الامور .

* * *

عـــالم الغيب :

لقــد أعطى الاسلام منهجا كاملا للميتـــا فيزيقـــا أو ما يسمونه عالم الغيب ، فكشف عن حقائق عالم الجن والملائكة ورسالات الانبياء والوحى ، وخلق السموات والارض والرياح والبحار والكواكب والاقمار ، وأوضح علاقة الانسان بها . ودعا الانسان الى أن يعبد خالق هذه الكواكب ، وأن لا يسجد للشمس ولا للقمر . وأن يعرف أنه تبارك وتعـــالى هو رب (الشعرى) اليمانية التى كان يعبدها العرب فى الجاهلية . كذلك فقد دعا الانسان الى عبادة الله الواحد الخالق ، وحرره من عبادة الاصنام والاوثان والصور ، وعلمه أن هـــذه كلها لا تملك له نفعا ولا ضرا ، كما كشف الله تبارك وتعـــالى عن سنن الخلق وتصريف الرياح ، وانشاء السحب وسوقها الى حيث يأمرها بأن تمطر فيصيب بهذا الغيث من يشاء ويصرفه عمن يشاء .

لكل داء دواء الا الموت :

وبذلك قضى على الاساطير العديدة التى كانت تتحـــدث عن الشياطين التى تسوق الرياح ، كذلك دعا الى التـــداوى من الامراض ، وأخبر النبى صلى الله عليـــه وسلم بأن الله تبارك وتعالى خلق لكل داء دواء الا السام (أى الموت) . وبذلك قضى على ما كان يقوم به كهنة بابل من بعض الطقوس لشفاء المرضى أو طرد الأرواح الشريرة أو ما كانوا يصفونه لالتهاب العين من انتزاع احشاء ضفدع صفراء .

كذلك دعا الاسلام الى دحض ما يسمى طوالع النجوم وافلاك البروج وتأثيرها على خطوط البشر واسرار الارقام ،

فان هذه كلها لا تملك لنفسها شيئا ولا تستطيع أن تقـــدم للانسان أى دليل على غيب ، فالغيب كله لله تبـــارك وتعـــالى .

المنهـج التجريبى :

وكانت دعوة الاسلام الى البشرية أن تنظـر الى خلق السموات والارض ، والى كيف بدأ الله الخلق ، والتـأمل فى هذا الكون الذى هدى المسلمين الى بناء المنهج العـلمى التجريبى الذى نشأت عليه الحضارة الحديثة . والذى ادعاه القس روجر بيكون وفرانسيس بيكون ومن ذهب مذهبهم .

وبذلك تحرر العقل البشرى من الاساطير والوثنيـات والخرافات القديمة ، وانسحق هذا الركام كله تحت أقـدام الحقائق ، وتحت اضواء نور العلم الحقيقى .

غير اننا نرى الآن أن هناك محاولة مستميتة لاحياء هذا الركام ، واعادة اذاعة هذه الخرافات التى ســادت فى العصور القديمة من جديد بعد أن حطمها الاسلام ، واقـام مفهوما أصيلا لكل ما يتصـل بعالم الغيب ولما يتصـل بخلق الكون والسموات والارض .

عودة الى الاســاطير :

هذا الركام الوثنى والبشرى تجرى اعـادة صياغته فى اساليب براقة وكتب فاخرة ، وتحمله الى النـاس صحف ومجلات راقية الطباعة ، ويحمل لواء الدعوة اليه كتاب لهم شهرة ذائعة ، حيث يجد اعجابا واقبالا وافتتانا من الشباب

المسلم ، الذى لم تتشكل له خلفية اساسية من مفهوم الاسلام، تحميه من تقبل هذه السموم . ولا ريب أن بعض البلاد الاسلامية قد خضعت لهذه الافكار الزائفة ، عندما ضعف مفهومها الاسلامى فى مرحلة التخلف ، ولكنهم وقد عادوا اليوم ينفضون عنهم غبارها ، عليهم ان يتحرروا منها ، وان الصورة التى سجلها مثل ادوار لين فى كتابه (المصريون المحدثون) لا تمثل الا مرحلة الضعف التى سيطرت فيها مفاهيم باطلة ، حيث تسربت الخرافات والاساطير مرة اخرى الى المجتمعات تحت اسماء التمائم والتطير ، وتقمص الأرواح، قد كتب لين ذلك فى نفس الوقت الذى كان الامام محمد بن عبد الوهاب يجاهد فى الجزيرة العربية ونجد لتطهير الاسلام من هذه الخرافات .

بين الفلك والتنجيم :

ومن عجب أن تذيع بعض المجلات كتبا مسمومة تحت اسم « علم الاساطير » لتخدع المسلمين عن حقائق دينهم ، بالقول بأن الكواكب لها تأثير على الميول النفسية والفكرية للبشر، وفى هذا ارتداد الى مجاهل التنجيم وشعوذة المنجمين، مما يتناقض مع مفهوم الاسلام الاصيل ، ومع منهج البحث العلمى الصحيح ، ولا ريب أن وراء هذه الاهواء قوى تغريبية وتلمودية خطيرة تحاول أن تفرض هذه المفاهيم المسمومة الزائفة ، بحيث تقول أن هناك صلة بين وجود الكواكب فى أبراج معينة وبين الاحداث ، أى ان مواليد برج معين تتميز شخصياتهم بظواهر معينة تختلف عن مواليد الابراج الاخرى .

ولقد حرر العلماء المسلمون علم الفلك الحديث من

خرافات التنجيم القديمة وفرقوا بين التنجيم وبين دراسة الافلاك ومواقع النجوم ، ولكن دعاة التلمودية يحاولون اعادته مرة اخرى الى الاساطير .

والحق انه لا صلة مطلقا بين الكواكب وبين ميول المواليد ، أو شخصياتهم ولا توجد أى اشعاعات خاصة نابعة من هذا الكوكب او ذاك تؤثر على الناس .

خلط العلوم بالاساطير :

بل ان بعض الباحثين فى علوم النفس والاخلاق ، يعتمدون على بعض الاساطير القديمة الزائفة ، فى اقرار أوضاع معينة على أنها حقائق — كما فعل فرويد فى تحليل اسطورة أوديب — التى اقام عليها نظريته ، وقد اختار الرموز الاصلية لنظرياته فى العقل الباطن والغريزة الجنسية من واقع هذه الاساطير وكذلك فعل سارتر .

ولقد تبين ان معظم اساطير الاولين هى من صنع خيال السومريين والبابليين وانها قد وضعت لتفسير الخليقة والتكوين وأحوال الالهة التى هى فى صراع مع الانسان ، وايضاح حادثات الكون الكبرى وفكرة الجان والشياطين والروح والنفس . وقد انتشرت حتى بلغت الجزيرة العربية، ومنها ما رواه هيردوت اليونانى وتيودور الصقلى وما ورد فى العهد القديم .

وكلها كما قلنا محاولات لسد الفراغ النفسى لدى الانسان ازاء الجوانب التى يخشاها ولا يعرف مصدرها ، ولا

ريب أن هذا كان بضاعة الوثنيين وما زال صناعة الكارهين لدين الله الحق ، ذلك ان دين الله منذ اول البشرية قد قـدم لمعتنقيه الاجابات الكاملة لكل هذه التساؤلات وهدى نفوس البشر الى الحق والهدى ، وقد قاومت الاديان كلها الكهـانة والعرافة (الكهانة تعنى استطلاع المستقبل بينمـا تعنى العرافة استرجاع الماضى) والقاسم المشترك بينهما هـو استطلاع الغيب والتنبؤ .

ولا ريب أن لدين الله الحق موقف مضاد للكهانة وهو يعتبرها قد انتهت بعد النبوة « لا كهانة بعد النبوة » وقـد أكد الاسلام أن الغيب ملك لله تبارك وتعالى وحده وأن من قصد عرافا فصدقه لا تقبل صلاته أربعين يوما .

الوســـائل :

وجملة القول فى هذا أن الاسطورة هى بديل الحقيقة، وعندما تختفى الحقيقة تنشأ القصة الخيالية والحقيقة هى الوحى . . ولقد جرت فى السنوات الأخيرة محاولة واسعة لاعادة طرح الاساطير اليونانية والعربية القديمة ، عن طريق الادب: « الشعر والقصة » وأعيد عرض هذه الخرافات الوثنيـة بأساليب جديدة عن طرق فنون المسرح والشعر الملحمى ، والنقد الادبى ، وحشدت أسماء كثيرة لاعادة كتـابة تاريخ الاسطورة فى الآداب العالمية ، وكل هذا ولا شك يرمى الى تحقيق هدف خطير هو شـغل الاذهان بأهـواء البشرية وضـلالاتها فى مرحلة طفولتها ، ودفـع ذوى الاغراض الى الاسطورة التى تمثل طفولة الانسان فى مرحلة انحرافه عن الدين الحق ، الى أن تصبح مصدرا من مصادر المعرفة ، وتوجه نحوها دراسات نفسية واجتماعية بقصد احيـاء الوثنية القديمة المثـلة فى بروميثوس ، وجلجـامش ، وأوزيريس ، وعشتروت ، وزينوس .

هذه الاساطير التى تحاول أن تعارض الاله الواحد والدين الحق ، وتقدم مفهوما زائفا عن العلاقة بين الله تبارك وتعالى وبين الانسان بما تحمل من تعدد فى الالهة ، بتقديم القرابين تارة ، وما تصوره من صراع دائم بين الانسان وبين الآلهة تارة أخرى ، هذه الآلهة الظامئة الى الشر والانتقام وما يكون دائما من هزيمة الانسان أمام الآلهة .

* * *

مفهـــوم الدين الحــق :

وهذا فى جملته غير صحيح فى النظر العلمى الصحيح، وفى مفهوم الدين الحق ، الذى يتمثل فيه الله تبارك وتعالى الهـا واحدا رحيما يقبل التوب ويغفر الذنب وهو بعبـاده غفور رحيم ، وكيف أن العلاقة بين الانسان وخالقه عـلاقة عبودية وايمان وتسليم (ايمان بالبعث والجزاء وتسـليم بالقضاء والقدر) وتقبل كامل لعطـاء الله كله وامره كله ، فليس هناك ما يومىء من قريب أو بعيد الى هـذا الذى يصورونه زيف باسم الصراع بين الانسان المسلم وجهــه لربه وبين الخالق الرحيم ، ولقد زيف الدين الحــق مفاهيم الاساطير ورجال اللاهوت حين ردوا الامراض الى عوامل خفية ، منها حقد الشيطان وغضب الله ، وما يتصل بذلك من مفاهيم زائفة فى السحر والجن والخــوارق ، حتى ردوا الاوبئة والزوابع والقحط وكسوف الشمس وخسوف القمر الى الشياطين .

كذلك فقد فرق الدين الحق بين الالوهيــة والنبوة ، وبين النبوة والانسان على نحو يحول دون هذا الخلط الذى تقع فيه الاساطير بين الآلهة وانصاف الآلهة وبين الابطال ، وبذلك دحض فكرة أن يكون هناك آلهة لكل عالم من العوالم كآلهة الجبال والامطار والرياح والحرب والخمر والجمال ، أو أن يكون هناك انصاف آلهة من الابطال القادة : وسجل هذا سيدنا يوسف على قومه من وقت بعيد حيث قال :

« أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ماتعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بهـا من سلطان ، ان الحكم الا لله أمر الا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » يوسف : ٣٩ ، ٤٠ .

وهكذا جاءت أديان السماء ، لتنسخ هذا الزيف جيلا بعد جيل ، فعلى لسان كل نبى كانت الدعوة الى تحـرير البشرية من هذه الوثنية ومن عبادة الاوثان والاصـنام والتماثيل .

خرافات الاليـاذة والاوديسـة :

والمعروف أن هذه الآلهة المدعـاة لم تكن الا بشرا ، أعطى من القداسة قدرا أخرجه عن طبيعة البشر فوصـف بمثل هذه الصفات الزائفة على النحو الذى نراه فى ملاحم الاغريق وكملحمة الاوديسة والالياذة ، من أن الآلهة عنـد الاغريق حاقدون على البشر ، وأنها قاسية على الكائنات الاخرى يغضبون فيحولونهم الى حيوانات أو نبـاتات أو أحجار أو ميـاه وقد وصفها الشاعر « أوفيد » بأنها ينابيع النار والدمار والهوان لكل الآداب العالمية .

ويرجع وصف الآلهة بالقسوة الى ما أوردته التوراة بأقلام الاحبار من وصف لله « جل وعلا عما يقولون علـوا كبيرا » بالاله المنتقم القاسى .

❋ ❋ ❋

المترجمون المسلمون أهملوا ترجمة الأساطير

ترجمت الى اللغة العربية فى العصور الاخيرة أعداد من الملاحم والاساطير اليونانية والفارسية ، وقد غفل القائمون على هذه الاعمال عن أن العرب فى ابان نهضة الترجمة تنكبوا ترجمة الملاحم والقصة والشعر بقصد واضح ، هو أنها تمثل « عواطف » و « مشاعر » أمم تختلف عن العرب فى عقائدها وعاداتها وتقاليدها ، ولكن ترجمة هذه الاساطير فى العصور الاخيرة ، جاء فى مرحلة ضعف العرب والمسلمين عن مواجهة تيار الترجمة الخطير ، الذى قادته قوى التغريب والغزو الثقافى ، بهدف طرح سموم الوثنية فى أفق الفكر الاسلامى .

ذلك ان الملاحم انما تقوم على تصور أحداث غير صحيحة فى طبيعتها ، وانما هى موضوعة على طريقة التهويل والاثارة وتضخيم الاحداث ، وتدافع الخيال فى أمواج من الخوارق التى تتنافى مع طبيعة النفس العربية والاسلامية ومع واقع الحياة نفسها ، وقد قصد بانشاء هذه الملاحم والاساطير فى بيئاتها تغيير وجهة الناس وتفكيرهم عن واقعهم المرير ، الى أجواء من الوهم والخيال ، ومن هنا فقد أعرضت الطبيعة العربية الاسلامية القائمة على الفطرة والبساطة والواقع والصدق عن هذه الملاحم ، هذه الطبيعة التى تستمد مقوماتها من خصائص مختلفة عن هذه الاحقاد والاهواء والمطامع والقتل والتدمير ، فالنفس العربية الاسلامية تستمد خصائصها من الشهامة والكرامة والفروسية بكل مقومات المروءة وحماية الذمار والدفاع عن الجار وصفات الكرم والشجاعة واغاثة الملهوف .

واغض طرفى ان بدت لى جارتى
حتى يوارى جارتى مأواها

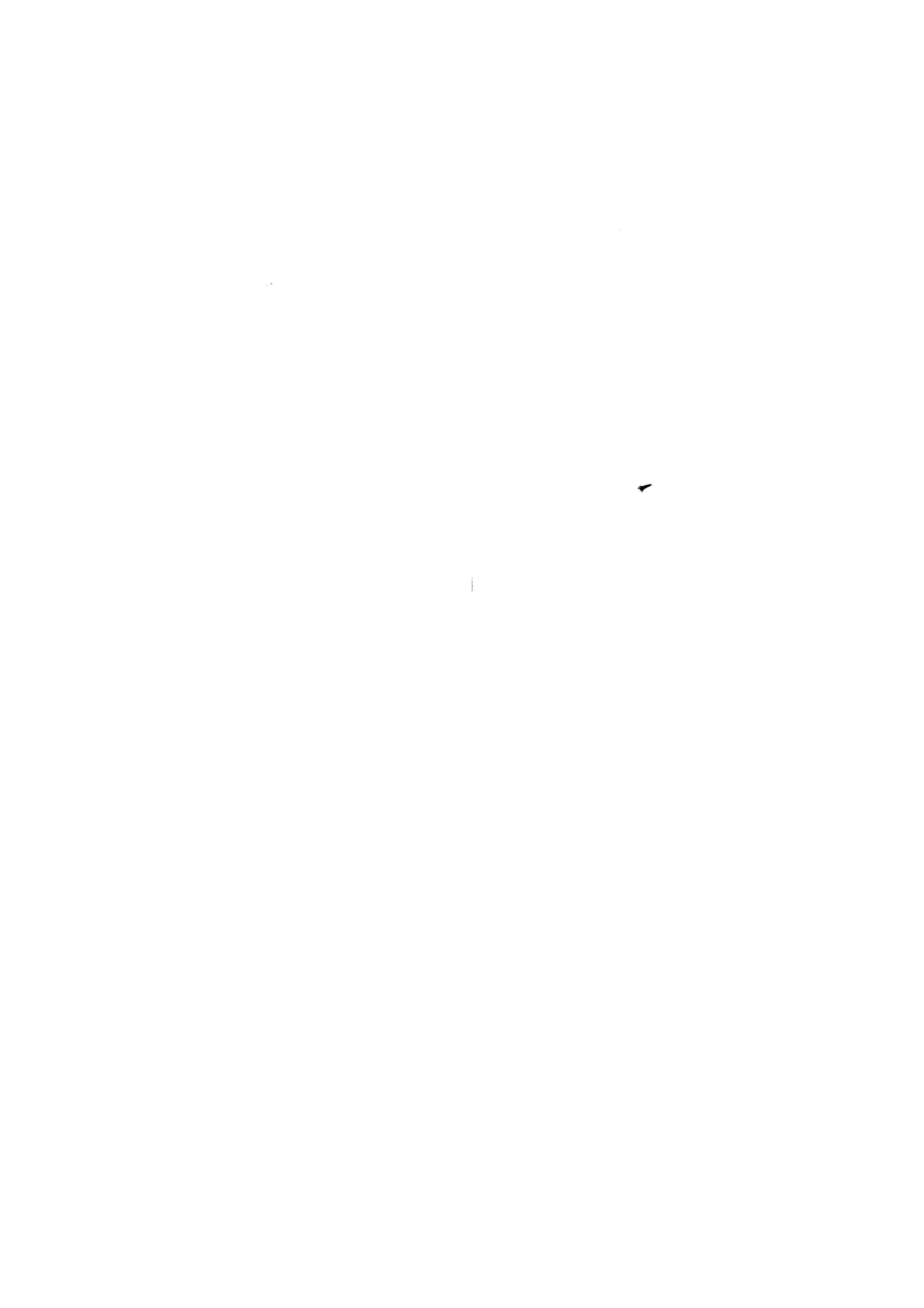
هذه الخصـــــائص العربية الاســـــلامية بعيـــدة عن المبالغة والعنف وصناعة الوقائع الاسطورية ، مرتفعة عن الخوارق عازفة عن الاهواء المضلة ، هذه الطبيعة فى الحقيقة استمدها العرب والمسلمون من ميراث الاديان والنبوة بــدءا الحنيفية الابراهيمية السمحاء ومتصلة بالنبوة المحمـــدية الكريمة ، ولذلك فقد رفضوا هذا اللون من الملاحم والاساطير واعرضوا عنها ، خاصة وقــد قــدم لهــم القرآن الواقعة الصحيحة والتاريخ الصحيح لكل ما حاولت الاساطير تصويره بالخداع والباطل : من أمثال الطوفان واهل الكهف وسليمان الحكيم وذى القرنين **« نحن نقص عليك نبأهم بالحق »** ، **« نحن نقص عليك أحسن القصص »** .

* * *

نزعـــات لا يقبلهـــا الاســـلام

واذا كانت الاسطورة ــ كما تقول مصادر البحث الادبى العالمية ــ تمثل الصراع بين الانسان والقوى الالهية . فان هذه النزعة وثنية فى طابعها ، ولم يكن من الممكن أن يتقبلها الاسلام أو يقرها ، ذلك ــ وكما قال احـــد كبار الباحثين الغربيين « جوستاف فون جرنبوم » ــ ان مفهوم الانسان فى الاسلام يمنع وقوع أى صراع درامى . ومن هنا فان عــزوف الادب العربى والاسلامى عن التمثيل والقصص والملاحم يرجع الى طبيعته الاصيلة القائمة على الواقعية والوضــوح . ان هذه النزعة ــ نزعة الصراع بين الانسان والقوى الالهيـــة نزعة وثنية فى طابعها لا يعرفها الاسلام ، ولا تتمثـــل فى نتاجه الادبى أو الفكرى ، فلماذا هذه المحاولات الضخمة ، التى يتقدم بها بعض الشعراء والقصـــاصون ــ التابعون للتعريب والغزو الثقافى ــ على طرح هذه الصور القائمة فى افق الفكر الاسلامى والادبى العربى الذى لا يتقبلها ويرفضها كما يرفض الجسم العنصر الغريب ، فضلا عن أن هـــذه الروايات والملاحم تغلب عليها روح الزندقة والالحاد ، وهى تتسم بفهم سىء لعلاقات الرجـــل والمراة ، فهى مكشـــوفة اباحية هى فى مجموعها تصدر عن معين مســـموم ، وهى توصل أذى السم الى قارئها فتفسد نفوسا ذكية وأرواحـــا طـــاهرة .

* * *



ومـــا الهــــدف ؟

ولا شك أن الهدف من هذا هو نفس الهدف الذى ترمى اليه دعوة التغريب : من افساد عقليات الشباب المســـلم وعواطفه فضلا عن خلق مفهوم منحرف عن مفهوم الاصالة والفطرة التى جاء بها الاسلام .

وحين نراجع ذلك الركام الذى ترجم فى الســـنوات الاخيرة من أمثال قصص توفيق الحكيم « بيجمـــاليون » ، « أهل الكهف » ، « الملك سليمان » وما نشره على محمود طه من شعر فى ديوانه « أرواح وأشباح » نجد هذا الالتقـــاء بين اساطير اليونان والمسيحية والفراعنة ، وتراث بابـــل وآشور والاسرائيليات اليهودية ، فى محاولة لاحتواء الفكر الاسلامى والادب العربى اللذين هما بطبيعتهما يتعارضـــان مع هذا التيار الخيالى المغرق فى المبالغة الوثنى الاتجاه ، بما اعطى الاسلام هذا الفكر وهذا الادب من طابع الوضوح والصراحة والطبيعة المشرقة « ليلها كنهارهـــا » وحيث لا يعرف الاسلام فى باب القصة الا القصة الواقعية الصادقة البعيدة عن الزيف ، المتحررة من التفاصيل الوهمية ، الهادفة الى تقديم العبرة الخالصة بعيدا عن التخيل والمبالغة والتأثير الخطـــابى .

ولا ريب أن هذه المحاولة الجديدة التى قامت بها قوى التغريب تستهدف ما عجزت عنه هذه القوى فى الماضى حين

رفض المسلمون ترجمة الملاحم والاساطير ، ولذلك فانه يجب التنبه لها ودحضها ومدافعتها بكل قوة وكيف يمكن أن يقبل هذا أهل الاسلام ، وقد جاء الاسلام لينهى طفـولة البشرية وليعلن دخولها فى مرحلة الرشد الفكرى ، هذا اللون من الادب أو القصة ، وقد أعلن الباحثون فى العصر الحديث أن الاسطورة من مخلفات طرائق فى السلوك والتفكير وعادات مندرسة ، حافظت على تفسير ساذج للعالم الخارجى .

لا حاجة بنـا الى هـذا اللون :

ولا اعتقد انه بعد ان تحدد هـذا الموقف العلمى وبعد ان اعطى المسلمون منهجا كاملا للميتافيزيقا (عـالم ما وراء المـادة) أن يكونوا فى حاجة الى اعادة هـذا اللون من مخلفات الجاهلية **الوثنية القديمة ، التى فصل** الاسـلام بين البشرية وبينها بأضوائه الساطعة ، وليس أدل على تخبط الغرب من أنه فى الوقت الذى يعلن فيه أن ينطلق فى أبحاثه من النهج العلمى ، أن يقبل هذه الاساطير لتقيم عليها نظريات وفروض ويعيد العالم من جديد الى عصر الاسطورة والغاية **((الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمـات الى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النـور الى الظلمات))** . البقرة : ٢٥٧ .

ولعل من اخطر الدعوات التى يروج لهـا التلموديون هى محاولة اجراء المقارنات بين الاساطير وبين الاديان وقولهم أن الاديان القديمة ما هى الا مجموعة من الاسـاطير التى لا تصلح الا للتلهية وامتاع الخيال ، ومن وراء ذلك القـول المسموم هدف مبيت ترمى به اليهودية الى اثارة التشكيك فى

دين الله الحق الذى صاحب البشرية منذ نشـــــاتها الاولى وهداها جيلا بعد جيل الى الحق .

وبالجملة فان القرآن الكريم ، حين نزل وهو ما يزال وسيظل هدى للبشرية الى أن يرث الله الارض ومن عليها ، قد الغى تراث الاسطورة كله ، وقدم بدلا منه تقريرا صادقا حقا ، فى كل ما يتعلق بحوادث التاريخ ووقائعـــه القـــديمة التى وصفت بأنها أساطير ، وزيفت فى العرض فى العهـــد القديم ، وخاصة فيما يتعلق بنشأة الحياة والطوفان وغيره « سفر التكوين » وقد أعلن القرآن ـــ صادقا ـــ أن ما يقدمه هو الحق الذى لا مرية فيه . كذلك فان الادب العربى لم يكن فى حاجة الى الاسطورة ، لانه قام على الحقيقة نفســـها ، ذلك أن الاسطورة لم تكن فى عرف أصحابها الا محاولة لملء فراغ الخيال بالنسبة لأمور غائبة ، وقـــد قامت على معنى متوهم ، بأن هناك فراغا بين الانسان وقـــوى الغيب وليس هذا صحيحا وقد جاءت الاديان السماوية ـــ دينا بعد دين ـــ لتنفيه وتكذبه ـــ وقد اكد الاسلام حين طبقت تعاليمه أن ما بين الانسان وربه هى رابطة العبودية بين المخـــلوق وخالقه ، ورابطة التكامل بين الانسان والكون ، فهى رابطة العطاء المذلل للانسان .

« هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » . الملك : ١٥ .

ولم يعرف المسلمون الاســـــاطير فى تاريخهم كله لان الحقائق التى جاءتهم من رسالة السماء كانت كافية ومقنعة .

* * *

دار العلوم للطباعة
القاهرة ٨ شارع حسين حجازى (القصر العينى)
ت ٣١٧٤٨٠

رقم الايداع بدار الكتب ٤٠٣٢ — ٨٢

الترقيم الدولى ٠ — ٠٠٧ — ١٤٢ — ٩٧٧